اللقاء السنوي الخامس والثلاثون

مستقبل مجلس التعاون الخليجي

البعد الإجتماعي

"مستقبل المواطنة والهوية الخليجية"

د. سوسن كريمي
باحثة أنثروبولوجية
جامعة البحرين

Sawsan86@yahoo.com

الكويت 5-6 فبراير 2015

موجز

تطرح هذه الورقة تساؤل أساسي حول الهوية الخليجية، وهي: هل هناك هوية/هويات خليجية؟ وإن كانت موجودة، فهل تمتلك هذه الهوية\الهويات فرص الاستمرارية والنمو مستقبلا وبما يتوافق مع بنية الدولة الحديثة وشروط الاتحادات الإقليمية؟ في سعيها للإجابة على الأسئلة المطروحة تتطرق الورقة إلى بعض من الخصائص التي تميز الهوية الخليجية عامة والشبابية خاصة، وذلك لأن الشباب يمثلون فئة حاملي عبأ الهوية المستقبلية. وتستند الورقة على بعض المقارنة بين الهوية الشبابية البحرينية ومثيلاتها من الخليجية في التعرف على الواقع واستخلاص النتائج.

على فرضية وجود "الهوية الخليجية" الجامعة وذلك على المستوى الشعبي، يسعي البحث الى تقصي بعض من ملامح الهويات بين الفئات الشبابية في المجتمعات الخليجية وتلمس مدى تقاربها مع بعضها أو تباعدها,ومقارنتها بالهويات الشبابية البحرينية، وعليه إمكانية بناء منظومة مواطنة خليجية مستقبلا. ونتساءل هل تستطيع هذه الهويات الخليجية في تسهيل عملية التحول الى المواطنة الخليجية الموحدة استنادا على وجود مقومات اجتماعية وموروثات مشتركة بين شعوب منطقة الخليج, أم ان الظروف والتغيرات الاقتصادية والسياسية أفرزت حالات من الخصوصية الاجتماعية بين شعوب دول مجلس التعاون الخليجي.

وبناء على ما ذُكر، يتطرق البحث إلى بعض العوامل التي تصوغ هويات الشباب في المجتمع الخليجي المعاصر، وهي :

i. الهويات الموروثة (الطائفية والعرقية)
ii. قضايا التعليم: الجنوسة وصراع القيم والازدواجية في المعايير
iii. هيمنة الثقافة الاستهلاكية
iv. الإعلام الخليجي وصياغته للهويات الخليجية الشابة.

وتخلص الورقة إلى استنتاج عدة وقائع للهويات الخليجية منها:

1) وجود إرث لغوي، عقائدي،عرقي، ثقافي، وتاريخي يجمع شعوب المنطقة الخليجية والأنظمة الحاكمة وأُسّس لبنة قوية لقيام ثقافة شعبية مشتركة تعرف بـ "الثقافة الخليجية".
2) التجارب التاريخية المتفاوتة (الثقافية، السياسية، والفكرية) بين مجتمعات دول الخليج أفرز بنيات ثقافية وطنية تتميز بالخصوصية في كل دولة من دول الخليج.
3) أهمية الإلتفات الى العوامل التي تلعب دوراً محوريا في صياغة الهويات الشابة في المجتمع الخليجي المعاصر.
4) تطلعات الشعوب الخليجية في التعاون والوحدة لا تعكسها واقع الصراعات والخلافات السياسية بين الانظمة الحاكم.
5) الواقع الاقتصادي الحالي المتفاوت بين دول الخليج وشعوبها وتفاوت الدعم الحكومي في أنظمة الرعاية والضمان الاجتماعي أدى الى تفاوت طبقي حاد بين مواطني دول الخليج العربي وحتى داخل الدولة الواحدة.
6) تبنيَ الحكومات الخليجية منظومة الاقتصاد الرأسمالي الحر Laissez- faire وركوب موجة النيوليبرالية neoliberalism القائم على التجارة الحرة والسوق المفتوحة والخصخصة والتحرر من القيود عزز من سطوة وثروات العوائل الثرية التقليدية والمتنفذة والتي تربطها مصالح مع السلطات الحاكمة. وافرز تفاوت حاد في الثراء بين طبقات الشعب. إلى جانب إفراز هذه المنظومة الاقتصادية طبقة جديدة من أثرياء حديثي النعمة *Nouveau riche* تستفرد بسلوكيات استهلاكية استعراضية أصبحت مرجعية للطبقات الدنيا، فعززت من هيمنة ثقافة الإستهلاك والتعبية للثقافية الغربية.

تخلص الورقة إلى طرح عدة متطلبات/اشتراطات لاستثمار في الجوانب الايجابية من الهوية الخليجية وبنائها وتطويرها إلى المواطنة الموحدة. وترتبط هذه الاشتراطات بالإصلاحات في البنية االتعليمية والاقتصادية ومعالجة قضايا التمييز على مختلف الأصعدة، وبناء المؤسسات السياسية الديمقراطية بما يتطلب والمشاركة المجتمعية، إلى جانب تأسيس برامج وبناء استراتيجيات إعلامية تسعي كلها إلى عمارة هوية ثقافية فكرية قومية مشتركة بين دول المنطقة.

البحث قائم على المنهج الأنثروبولوجي وهو البحث الإثنوغرافي مستخدما عدة أدوات من المنهج الكيفي. وأستند على طلبة جامعة البحرين كعينة للبحث.

المقدمة

منذ انطلاقة موجة ما اشتهر بالربيع العربي في المنطقة العربية ازداد اهتمام بعض الحكومات الخليجية بالدعوة لإقامة اتحاد خليجي، والذي يفترض أن يكون مبدئيا قائما على أسس اقتصادية وسياسية (ومع الأخذ بعين الاعتبار بان شعوب المنطقة تتمتع بأواصر تاريخية من حيث القرابة عبر الدم والزواج والتاريخ المشترك) ألا أن لتأسيس الاتحاد على أسس المواطنة الحديثة، والتي تستند على قيم الديمقراطية،[1] أثر مباشر ومتبادل على البنية الاجتماعية لشعوب المنطقة الخليجية وما سيفرزه من توقعات ومتطلبات. وهذا يشير الى صعوبة تأسيس الإتحاد لكن لا ينفي استحالته، وفي آن ذاته ضرورته المستقبلية بعد استيفاء شروطها.

على الرغم ما ذكر، ومقارنة بمعظم الكيانات الإقليمية في العالم، فإن شعوب الخليج تمتلك المقومات الاجتماعية والثقافية لتأسيس الاتحاد الخليجي أكثر من أي من تلك الكيانات الإقليمية. فاللغة واللهجة والتاريخ المشترك والثقافة "الشبة التقليدية" وهيمنة الفكر العقائدي كلها خصائص تجمع وتميز الثقافة الخليجية. وتنتشر أسر من عوائل وقبائل وعشائر وأصول مشتركة على ضفاف الخليج ومازالت تحافظ على أواصر القربى بينها عبر الزيارات المتبادلة والتزاوج الداخلي. وأسست هذه المقومات سمات عامة يمكن أن نطلق عليها "الهوية الخليجية". وبإمكان هذه المقومات الاجتماعية-الثقافية أن تلعب دورا محوريا في تسهيل عملية التحول التدريجي إلى اتحاد خليجي. بل أن هذه الخصائص الاجتماعية-الثقافية تشهد بأن إرادة شعوب المنطقة في تتويجها إلى إتحاد خليجي مستوفي شروطها اقوي من رغبة النظم الحاكمة التي تمنعها الخلافات السياسية من تلك التحول.

المحاور: في الصفحات التالية نسعى لتلمس واقع الهويات الخليجية من خلال طرح بعض المحاور المتعلقة بملامح هذه الهويات وذلك عبر الإجابة على الأسئلة التالية: ما هي الهويات الموروثة في الخليج؟ما هي أهم ملامح الهويات بين الفئة الخليجية الشابة؟ما هو دور التعليم في

---

[1] وكما هو معلوم في أدبيات المواطنة في الدولة الحديثة، المواطنة تتطلب الديمقراطية إن لم تشترطه، لان المواطنة في دولة المؤسسات والقانون تشترط الاعتراف والمشاركة. وعليه، فالسؤال الذي يطرح نفسه هنا, **كيف ستكون الآثار الاجتماعية للمواطنة الخليجية في ظل النظم السياسية الحالية، وكيف ستكون المواطنة الخليجية في ظل نظم سياسية ديمقراطية؟**على الرغم من أهمية هذا السؤال ومحاولة التطرق للإجابة عليه، إلا أن ذلك يتطلب مشروع بحث آخر مما لا يسعنا في هذه الورقة.

صياغة الهويات المحلية والإقليمية؟كيف شكل ثقافة الاستهلاك هوية الخليجي؟ ما هو دور الإعلام الخليجي في صياغة الهويات الخليجية؟ وتبدأ الورقة بقراءة موجزة للهوية البحرينية الشابة المعاصرة ومقارنتها بمثيلاتها الخليجية. أي تتضمن الورقة المحاور التالية:

i. الهويات الموروثة في البحرين والخليج (الطائفية، العرقية، القبلية، الحضرية، الطبقية)
ii. قضايا التعليم: الجنوسة وصراع القيم والازدواجية في المعايير
iii. هيمنة الثقافة الاستهلاكية
iv. الإعلام الخليجي ودوره في صياغة للهويات الخليجية الشابة.

بخلاف المجتمعات الغربية التي حصدت ثمار التمدن المعاصر من خلال ثورات سياسية واقتصادية وثقافية وفكرية وصناعية واجتماعية وذلك عبر عدة قرون من الزمن، أو كالتجربة اليابانية في التحضر والذي تم من خلال برنامج ميجي الإصلاحي The Meiji Restoration 1868، مرت المجتمعات الخليجية في القرن العشرين بتحولات اقتصادية ومدنية مفاجئة بسبب تدفق الثروة النفطية ولم تتزامن مع هذه التحولات إصلاحات في البنيات السياسية والاجتماعية وحتى الاقتصادية بما تتوافق مع هذه التحولات.[2]

منهجية البحث: البحث قائم على المنهج الكيفي، واستند بصورة أساسية على البحث الإثنوغرافي مستخدما أدوات البحث الأنثروبولوجي، ومنها: المقابلات بأنواعها، الملاحظة، الملاحظة بالمشاركة، الجماعة البؤرية، دراسة السيرة الاجتماعية، تحليل الوثائق، دراسة حالة، إلى جانب قراءة الأدبيات والدراسات العلمية المتعلقة بالمواضيع المطروحة. ومن المهم أن نشير هنا أن المناهج الأنثروبولوجية قائمة على العمل الميداني والذي يشترط تحديد مجتمع البحث والمعايشة المباشرة معه، مما يعني استحالة العمل الميداني على مستوى دولة أو عدة دول. وعليه النتائج التي يتم التوصل لها تمثل حقائق لواقع البنية الاجتماعية والخصائص الثقافية لعينة البحث ولكنها ليست بحقائق مطلقة وثابتة وجامعة لكل للمجتمع والوطن بأكمله. بل هي مؤشرات يمكن الاستناد عليها في التعرف على واقع الحال في المجتمع الأوسع.

[2]According to Al-Naqeeb, the ruling family governs through institutionalised co-operation and manipulation of the tribal establishment, or what he terms 'tribal co-operation' (1990: 106-7).

عينة البحث: البحث قائم على خبرة تزيد عن عشر سنوات من التدريس لمقررات الأنثروبولوجيا والجندر والدراسات الثقافية وحقوق الإنسان في جامعة البحرين، وفصل في جامعة الخليج العربي الذي يضم طلبة من كل دول الخليج. أغلبية عينة البحث هم طلبة جامعة البحرين، وبالأخص طلبة كلية الآداب، ونسبة أقل من طلبة كلية إدارة الأعمال والعلوم الصحية وطلبة من كليات اخرى متعددة. أحتوى العينة أيضا الطلبة الخليجيين من جامعة الخليج العربي وطلبة المدارس الخاصة في البحرين. استفدت من شبكة العلاقات الاجتماعية والمهنية التي تربطني بالمجتمع الخليجي في الحصول على المعلومات والوثائق. ووفرت لي هويتي كباحثة وطنية، أي انني انتمي لمجتمع البحث، فرص التواصل مع أفراد المجتمع دون الحاجة إلى وسطاء كما يحدث عادة مع الباحثين الأجانب. كما أن لي شبكة من العلاقات العائلية والأصحاب والجيران ومع مؤسسات المجتمع المدني الذين استقيت منهم المعلومات والملاحظات وأجريت معهم الحوارات.

الإطار النظري: الدراسة العلمية لمفهوم الهوية/الهويات هي من القضايا التي حازت على اهتمام الباحثين من مختلف الحقول المعرفية. وتعتبر الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع من أكثر العلوم التي أولت هذا الموضوع الاهتمام وقدمت الدراسات والمناظرات والتحاليل حوله. ومن المؤكد أنه ليست هناك نظرية جامعة عامة يتم من خلالها دراسة وتحليل واستيعاب كل الهويات وفي مختلف المجتمعات. بل أن النظرية الواحدة قد لا تستوفي إمكانية تحليل مجتمع وثقافة واحدة. وعليه قد تتطلب دراسة هوية جماعة/ ثقافة واحدة التحليل من خلال طرح عدة نظريات.

الهوية مرنة ومطاطة وتتغير وتتحول عاكسة التحولات الدولية والإقليمية والوطنية. إذاً، من خلال دراسة الهويات وتحولاتها يمكن التعرف على الأوضاع السياسية والاقتصادية وتأثيراتها الاجتماعية دوليا وإقليميا وليس فقط الأوضاع الداخلية في دولة ما (كريمي 2003، 2006). وعليه، استشراف سمات الهوية الخليجية المستقبلية في ظل المشروع الاتحاد الخليجي يتطلب التعرف المسبق على الواقع الراهن للهويات في الخليج وخصائص هذه الهويات، وهل تجتمع هذه الخصائص لتشكل هوية خليجية جامعة؟

ويمكن أن نجزم أنه كما انه لا يوجد الآن هوية خليجية "واحدة" و"شاملة" و"ثابتة"، بل سمات لهويات خليجية، لن يكون في المستقبل وفي ظل الاتحاد الخليجي هوية خليجية "واحدة" بصورة **مطلقة** بل هويات خليجية متعددة تشترك في خصائص بارزة، ويعتمد ذلك على مدى نجاح مشاريع الاتحاد وتكامل محاورها الاقتصادية والقانونية والسياسية، والذي يمكن من خلالهم بلورة خصائص للهويات الخليجية والتي قد تشترك بعض ملامحها (سمات الخلجنة) وتنفذ خلال مختلف الجماعات المشكلة والمؤسسة للهويات الخليجية.

مصطلح "الهوية" 'identity' كلمة لاتينية تعني التشابه لكنه تاريخيا استخدم ليعني الاختلاف والتشابه. من المنظور الغربي/الأوروبي الإستعراقي تم إقصاء العديد من الجماعات تحت عنوان "الآخرين" عند دراستهم للهويات الثقافية، ويضم هؤلاء الآخرين الشعوب المستعمرة، النساء، أصحاب الديانات الغير مسيحية (كالمسلمين) ، الملونين (كالعرق الأسود والأصفر)، الجماعات العرقية المختلفة، والمثليين (Kohn 1944; Kedouri 1961; Said 1979, 1994; Fanon 1986; Hooks 1984; Spivak 1987; Bhabha 1990, 1994; Fluehr-Lobban 1994).

كان مفهوم الهوية بالنسبة للأنثروبولوجيين الأوائل يحمل متغيرين، التشابه والاستمرارية sameness and continuity، وبنية الهوية تعني عبارة عن نمو ودمج لوحدة خصائص موروثة، وعليه التغيير في الهوية كان يعتبر "أزمة هوية" وحالة استثناء للقانون أو الوضع العام السائد. (De Levita 1965; De Vos 1968; Cohen 1974a; Fullerton 1980; Van Den Berger 1981; Weinereich 1983; Fortes 1983; Kellas 1991; Kapferer 1995).

تشير الدراسات الأنثروبولوجية الحالية حول "الهوية" إلى مفاهيم الاختلاف والإخلال (الفوضى والتشويش) difference and disruption، حيث الهوية ليست مسلّمة بل هي عملية معقدة من التشكيل والتزييف للهويات، حيث يكون للناس هويات عدة ومجزأة وغير منسجمة. وترتبط تشكيل الهويات بصراعات القوة وأنواع القوى المشاركة في الصراع والوقائع

المحيطة؛ واستند الأنثروبولوجيون على مفاهيم المقاومة والتوافق في دراسة عمليات تشكيل الهوية (Fox 1990; Calhoun 1991; Hall 1992; Lash and Friedman 1992; Marcus 1992: 313; Larrain 1994; Moore 1994; Bank 1997; O'Leary:1992). ومؤخراً أصبح العلماء يستخدمون مصطلح "التماثل" للهوية 'identification' ليشيروا إلى عملية تشكيل مستمرة للهوية يتغير من خلالها محتوى وحدود الهوية وذلك حسب المعطيات المحيطة، في حين يعتبر الأفراد أنفسهم أعضاء في جماعات هويتها ثابتة لا تتغير.

بالنسبة للهويات القومية، فقد اقترح بعض علماء الغرب عدة متغيرات في دراسة مفاهيم الهوية، فقد رأي بنكس (Banks 1997:142) أن "الهوية" identity و"القومية " nationalism مفهومان متضادان لكنهما نتاج لمصطلح العرقية/ الإثنية ethnicity. بينما رأى ماكدونالد (1993) أن الهوية ما هو إلا امتداد لمصطلح العرقية المقيد. في حين أن ناش (O'Leary 1989:127) يطرح مفهوم مطاطي للعرقية ليشمل النضال والصراع السياسي والاقتصادي أو الثقافي. كوهين من جانب آخر دعا إلى أهمية النظر إلى الإثنية كإستراتيجية وليست هوية (Banks 1997: 34). وعليه، تعزز النظريات حول القومية nationalism تلك النظريات عن الإثنية ethnicity، ونظريات القومية تسهل فهم دور الدولة كأداة مركزية في تأسيس وبناء الهوية العرقية (Bank 1997: 121-2)، كما هو مفعل في الخليج. ويرى بانكس أن بنية مفهوميّ "القومية" و "العرقية" يفترضان الارتباط بفئات مجتمعية مختلفة ، فبينما ترتبط "القومية" بدراسة الحركات القومية والدولة والأمة، يندرج مفهوم "الإثنية" تحت الهويات القبلية التي تحولت عبر عمليات التحضر إلى هويات إثنية (cf. Mitchell 1959; Shryock 1997). الإثنية لا تستخدم فقط لدراسة الجماعات التي تدعي امتلاكها لسمات بيولوجية مشتركة بل أيضا تستخدم كأداة تحليلية لدراسة ادعاءات مختلفة لعدة أنواع من الهويات. لخص بانكس هذا العلاقة الإشكالية بين الإثنية والقومية كتلك حول هل الدجاجة سبقت البيضة أم العكس صحيح (1997: 136).[3]

[3]- See also Burgess 1978; Burghart 1984; Eriksen 1993; Kellas 1991; Jayawrdena 1980; McLellan 1987; Rex 1986.

أما الأطروحات حول الهويات في الشرق الأوسط فقد تم صياغتها من قبل المستشرقين، وتم تعريف هوية الشرقي بكل ما هو غير غربي، فالشرقي غير عقلاني، وجامد، واستبدادي؛ وتدور هوياته في مدار القبلية والتدين والتقاليد الثابتة والأصولية الإسلامية. ويذكر فوكو(1979، 1980) أنه من خلال عملية الإقصاء للتابع/الخاضع، يتم تحديد هوية الشرقي كـ "الآخر" المهمش/المبعد. ويضيف آيكلمان (1989) أن البدو الرعاة يشكلون ما يقارب 1% فقط من سكان الشرق الأوسط ولكن معظم الدراسات الأنثروبولوجية عن الشرق الأوسط مازالت تدور في فلك المجتمعات البدوية وليست الحواضر والمدن والقرى، هذه الدراسات تروّج صورة رومانسية نوستالجية لشرق أوسطِ ثابت لم يتغير عبر القرون. ويذكر ادوارد سعيد موقف المستشرقين القائل بأن القوى التقليدية *forces of traditionalism* في مجتمعات الشرق الأوسط تصدت للتغييرات التي تواكب عمليات التمدن. وعليه، يرى البعض أنه لا يمكن تغيير بنية هذه المجتمعات الشرقية الجامدة إلا من خلال تدخل خارجي للقوى الرأسمالية والإمبريالية والاستعمار، عندها لا يمكن اعتبار الهيمنة الإستعمارية كاضطهاد سياسي، بل هو متطلب أخلاقي ورسالة حضارية (Turner 1984: 47, 2; Eickelman 1989: 43). وجهت أدبيات ما بعد الكولونالية انتقادات لاذعة للكتابات الإستشراقية، لكن مازال العديد من المفكرين الغربيين ينظر للشرق الأوسط على أساس هذه البنيات الفكرية الإستشراقية ويرى أن هذه المجتمعات الشرقية تفتقد فئة أساسية من الهويات، وهي الطبقة الوسطى، التي تؤسس كمتطلب سابق لقيام الرأسمالية وقوى التصنيع والتمدن، وبالتالي تيسير إمكانية الاندماج والتكامل في المنظومة العالمية (Eisenstadt 1977; Gran 1979; Turner 1984, 1994).

أدى اكتشاف النفط وما ارتبط به من تدفق الثروات في دول الخليج العربي إلى تغيرات سريعة وخاطفة في بنية هذه المجتمعات من التحضر والتمدن. لكن ما زالت العديد من الدراسات تتعامل مع هذه المجتمعات المتنوعة "هويات كتل" *collective identities* تتكون من قبائل وقرويين والحضر، وهذه الكتل تندرج أما تحت نموذج "الموساييك" الجامد حيث تساهم فئة محددة في البنية المجتمعية، كتلك التي في المجتمع الكوزموبوليتاني (المتنوع/العالمي) *cosmopolitan*؛ أو نموذج "النسب الثلاثي المتقاطع" *triangle segmentary lineage* كما هو في منظومة القبائل (أنا وأخي على أبن عمي وأنا وأبن عمي على الغريب)

138; Caton (Layne 1994: 13-18; Gilsenan 1992; Eickelman 1989: 131-1987; Salzman 1978a; Evans-Pritchard 1940).[4]

بناءً على ما طرح من التنظير حول مفاهيم الهوية، نستخلص عدة محاور ننطلق من خلالها للتعرف على "الهوية/الهويات الخليجية الشابة والإشكاليات المرتبطة بها". نجزم أنه في المجتمعات الخليجية مازلنا ننظر إلى هوياتنا، كما كان يعتقد الأنثروبولوجيون الأوائل، كرزمة من السمات الموروثة الثابتة والمقدسة والتي تحدد موقع الأفراد والجماعات في هيراركية النفوذ والمصالح. الاعتراف بحقيقة التغيير والتفاوض والانتقال والانتقاء والإلغاء في صياغة الهويات ما زالت مغيبة ومرفوضة على المستويين الشعبي والرسمي.

بالإضافة إلى ما ذكر، فإن المجتمعات الشرقية عامةً، والخليجية منها خاصة، باتت تنظر لنفسها من خلال العيون الغربية الإستشراقية والإستشراقية الجديدة، أي تؤمن بما سوقه الغرب عنها من صور نمطية دونية، بل وتبنت هذه الصور وسوقتها وحتى كيّفت سلوكها بما يتوافق مع هذه الصياغات الإستشراقية للهويات العربية والشرق أوسطية. وبالإمكان تلمس ذلك ليس فقط على مستوى الكتابات الأكاديمية الصادرة من المنطقة، بل أيضا من خلال الإنتاج الإعلامي والإعلاني، خاصةً تلك في مجتمعات الخليج العربي، كما سنتحدث عنه لاحقا.

كما يجدر الإشارة إلى ما طرحه بانكس (Banks 1971: 121-2) حول دور الدولة في تأسيس وبناء الهوية العرقية، حيث نرى في المجتمع الخليجي إنها مسؤولية وعملية محتكرة من قبل المؤسسات الرسمية دون الأهلية، كما يمكن رؤية ذلك، كمثال وليس الحصر، من خلال تحليل دور المتاحف الوطنية وما يعرض فيها.

[4]- Such an approach also persists in socio-linguistic studies of the Middle East, see Holes (1987).

المحور الأول: الهويات الموروثة (الطائفية والعرقية)

الهويات البحرينية: الى ما قبل عهد الإصلاح 2002 في البحرين كان المعيار السائد بين الأغلبية البحرينية في تحديد هوياتهم هو الإنتماء الطائفي/الديني (سنة - شيعة) أولا من ثم العرقي (عربي-أعجمي).[5] الغالبية العظمى من سكان القرى هم الشيعة مما جعل الهوية الطائفية اكثر بروزا بينهم، بينما في العديد من الأحياء الشعبية (الفرجان) في المدن كالمنامة والمحرق، وبسبب جغرافية المكان والبنية الاجتماعية المتداخلة، تضعف فيه حدة الانتمائات الطائفية والعرقية وتكثر فيه نسب التزاوج عبر هذه الجماعات. وتنقسم الهوية الطائفية على الانتماء العرقي. فكان مألوفا التقسيم التالي: السني العربي ويعرف اصطلاحاً بالبحريني أو العربي، والسني ذوي الأصول الفارسية ويعرف بالهولي, من ثم الشيعي العربي ويعرف بالبحراني، وأخيرا الشيعي من ذوي الأصول الفارسية ويعرف بالعجمي. ويمكن استخدام نسبة التزاوج بين هذه الفئات كمحك للتعرف على مدى التلاحم والتوافق أو اللاتوافق بينهم. وهناك تراتبية/هيراركية في المكانة والفرص المتاحة لهذه الفئات وذلك على المستوى الرسمي والذي انعكس بالتالي وفي الفترة الأخيرة على المستوى الشعبي. وارتبطت حدة التمييز بين هذه الفئات بالاوضاع والصراعات السياسية الأقليمية والدولية أكثر منها بالصراعات الداخلية. ظهرت حدة الإنقسام الطائفي والانتماء للهويات العرقية منذ الثمانينات من القرن السابق مع انفجار الثورة الإيرانية. وازدادت وتيرتها في التسعينيات الى أن وصلت الى حد الانقسام المجتمعي في العقد الأول من الألفية الجديدة. عوامل عديدة لعبت دورا في غرس وتنمية الهويات الطائفية-العرقية الخامدة في البحرين، ولكن أخطرها كان الاستغلال السياسي الداخلي لهذه الانتماءات الموروثة تاريخيا. بخلاف المستوى الرسمي، التمييز الطائفي/العرقي لم يكن نشطاً على المستوى الشعبي ولكن تم تفعيله اجتماعيا. ضمن هذه المنظومة من الانتمائات التي تتعارض مع قيم المواطنة وأسس الدولة المدنية الحديثة تأسست هويات الشباب البحريني وأصبح - سواء بصورة واعية أو غير واعية - يرى انتمائه الأولي والأساسي هو للطائفة ومن ثم العرق، وبذلك يرى هويته الوطنية من خلال انتمائه الديني والعرقي.

---

[5] - اصطلاحا، يقصد بالأعجمي في البحرين اولئك البحرينيين من الأصول الفارسية. لكن يوجد العديد من البحرينيين الذين ينتمون لأصول هندية وباكستانية وبلوشية، وبعظهم قد استوطن البحرين منذ ما يقارب القرنين من الزمن والبعض الأخر منذ عدة عقود ويُعَرفون بعض هذه الجماعات بأصولهم العرقية، وليس بمصطلح "الأعجمي" كما يفترض لغويا.

منذ ما يقارب عقد من الزمن تم اضافة فئة جديدة لتقسيم الهويات أعلاه في البحرين، وهم العرب وبعض الآسيويين الذين تم منحهم الجنسية البحرينية، ويُعرفون بين الفئات البحرينية السابقة بـ «المجنّسين» ويتم النظر اليهم والتعامل معهم من قبل الفئات البحرينية «الأصيلة» كدخلاء وأنهم في أسفل سلم الهويات في البحرين. وتفتقد هذه الفئة التعاطف والقبول من قبل أغلبية البحرينيين وتعاني من التمييز على المستوى الشعبي.

لكن ومقارنة بالمجتمع الكويتي، التعصب المذهبي والتمييز الطائفي في البحرين وحتى عهد قريب لم يكن يشكل واقعا مجتمعيا بارزا وذلك على المستوى الأهلي فقط. بخلاف الكويت التي تبرز فيه الانتمائات الطائفية والعرقية عامةً على المستوى الشعبي دون الرسمي، حيث أن مداخل الفرص والموارد ليست مشروطة ولا مرتبطة بصورة عنيفة بالهويات الطائفية. ولكن يعاني المجتمع الكويتي أنواع من والتقسيمات التي قد لا تمثل واقعا في البلدان الخليجية الأخرى كالتمييز بين الحضري في مقابل البدوي، والمحروم من الجنسية الكويتية (البدون) في مقابل المواطن صاحب الجنسية الكويتية. بينما نرى حدة التمييز في دولة الإمارات بين المواطن والوافد، وان يكون الفرد مواطناً هو في حد ذاته مصدراً للتمييز والإستعلاء والتفوق المادي. في سلطنة عمان التعصب المذهبي ضعيف في مقابل التعصب لمن يُعتبر "العماني الأصيل" ، بخلاف اؤلئك من ذوي الأصول الغير عربية ، وبالأخص الأفريقية.

عموماً، تُصنف المواطنة في الدول الخليجية تراتبيا وذلك بصورة غير رسمية ، وتتفاوت حدةً التفاوت من دولة الى أخرى، فنرى مواطن درجة أولى وثانية ..الخ، وذلك بناءً على ولاء المواطن للسلطة ومدى قربه من مصدر القرار.

لا يعني كل ما ذكر مسبقا حول الهويات الطائفية والعرقية الموروثة في الخليج بأنها تمثل عائقا كليا في وجه المواطنة الخليجية. فالمجتمع الخليجي يمتلك من المقومات الثقافية والتاريخية والعقائدية واللغوية والجغرافية المشتركة وروابط االقرابة عبر الدم والزواج أكثر

من أي اتحاد أقليمي في العالم.[6] لكن السياسات الرسمية لبعض الدول الخليجية تقف في بعض الآحايين عائقا في سبيل تنمية وتعزيز هذه المقومات والروابط الموروثة. ولنا في ما حدث من خلافات بين دولتي قطر والبحرين مؤخرا خير مثال، فقد أدت الخلافات السياسة الى انقطاع اواصر التواصل بين الأسر والأقارب في تلك الدولتين، حيث منع البعض من السفر من والى الدولتين، وعبرت بعض المقالات الصحفية والعديد من وسائل التواصل الاجتماعي عن مدى التخوف والانزعاج بين تلك الأسر.

انتقل أثر تلك المقومات المشتركة بين شعوب منطقة الخليج إلى الفئة الشبابية الخليجية، وعلاوة على ذلك، تعزز بينهم الحس المشترك بالهوية الخليجية نتيجة للدور الذي لعبه وسائل الإعلام الرسمي في دول الخليج، الى جانب أن التطورات التقنية الحديثة في مجال التواصل الاجتماعي قد فتح آفاقا جديدة للتواصل والتحاور والتصارع بين الشباب الخليجي. لكن التغيرات الاقتصادية والسياسية المتفاوتة بين دول المنطقة وخلال العقود السبع الماضية أوجدت أيضا ملامح ثقافية تميز وتعزز من خصوصية الهوية المحلية لكل مجتمع خليجي.

فبالنظر لفئة الشباب في البحرين نجد خصائص تميزه عن جيل الشباب في الدول الخليجية الأخرى، كما هو الحال أيضا بالنسبة للشباب في باقي دول الخليج. ففي لبحرين، شعور قوي بين عدد كبير من أفراد المجتمع البحريني أنه مختلف (إيجابيا وسلبيا) عن باقي شعوب الخليج وله هوية ثقافية وتاريخية تميزه عنهم، ومن بعض من العوامل التي أدت إلى تشكل هذا الحس، وهو أن تكون بحرينيا يعني:

i. الوضع الاقتصادي: يرى المواطن البحريني التفاوت الشديد بينه وبين معظم مواطني دول الخليج من حيث الدخل ونوعية الوظائف والسكن والضمانات الاجتماعية، والصحة والتعليم، والخدمات الأخرى. فأشتهر البحريني بين الخليجيين بـ "الهندي" لمزاولته مهن تمارس في دول الخليج الأخرى من قبل العمالة الأسيوية الوافدة وهي ذي أجر زهيد ، وعليه ينظر له الخليجي بحقارة.

[6] _ اللغات الرسمية التي تعتمدها الاتحاد الأوروربي هي ثلاث وعشرون لغة، بينما يتوحد المجتمع الخليجي ليست في اللغة فقط ، بل حتى في اللهجة.

ii. إرث النضال والعمل السياسي والنقابي والذي مازال مستمرا في البحرين وبصورة قوية مقارنة بباقي دول الخليج.

iii. وضعية المرأة: حيث تمتلك البحرينية مساحة أكبر من الحرية في مختلف المجالات، وذلك على المستوى الشعبي والرسمي، وتتخوف من خسارتها عند تأسيس الاتحاد الخليجي.

iv. الإرث الثقافي والفكري: يرى البحريني أنه سبق دول الخليج في التعليم وتأسيس النوادي الثقافية والحركات العمالية والنسائية. فيري البحريني نفسه انسان مثقف لكن "مطحون" في مقابل الخليجي الذي ترعيه دولته وتدلله.

المحور الثاني: قضايا التعليم: التبعية، المثالية ، الجنوسة، وصراع القيم والازدواجية :

مازال التعليم في البحرين سائرا على منهجية التعليم الديني التقليدي القائم على الحفظ والتلقين (Rot memorization) والذي أسس لقاعدة التبعية وصادر قيمة التفكير الناقد والتحليل والاستنتاج. هذه المنهجية من التعليم التقليدي يصنع اتباعا وعبيدا وليس مواطنين مفكرين ومبدعين وذوي ارادة ورأي ناقد حر، وهنا نستذكر فكرة بولو فرير (1993) حول "التعليم الاستعبادي"، فيذكر في كتابه ***أصول تعليم المضطهدين***، أن بعض الدول تستخدم "ثقافة الصمت" كمنهجية تعليمية، بينما فرض التطور التقني على الآخرين، بالأخص الفقراء منهم، الامتثال الصارم للقوانين.[7] تفتقد مناهج التعليم في المدارس الحكومية، في الخليج عامة، لقواعد التعليم من خلال الحوار والمناقشة والاستماع للرأي المختلف وحرية الإختيار. كما أن ابداء الطالب لرأي أو اختلافه مع المعلم حول أي موضوع علمي يعتبر تجاوز لحدود الأدب والاحترام وسوء تربية الأسرة لأبنهم/أبنتهن، بل وحتى فشل الأسرة في اداء دورهم التربوي.[8] لذلك، عندما يصل الطالب/ة الى الجامعة يواجه صعوبة في التأقلم مع

[7] - تم ترجمة الإقتباس من اللغة الإنجليزية من قبل الباحث.
[8] - أنظر لمقالة أوما نارايان (2002).

متطلبات الدراسة الجامعية وأجوائها وبالأخص في التخصصات الاجتماعية والأدبية التي تتطلب كسب المعرفة من خلال الحوار والنقاش.

يعاني التعليم اشكاليات على عدة مستويات ولكن متداخله، والمطروح هنا بعض من قضايا التعليم والهوية في البحرين والخليج:

i. المثالية والفكر النوستالجي

تتسم ادبيات التعليم الرسمي في البحرين ومعظم دول الخليج في صياغة كتبها حول والتاريخ والاجتماع والدين بصياغة صورة فاضلة ومثالية لتاريخ وبنية وعقيدة وإدارة المجتمع الخليجي. ولا تحتمل هذه الكتب امكانية المراجعة والنقد والتشكيك أو حتى امكانية وجود حقائق مخالفة لما هو مكتوب. كتب المدارس والجامعات، وحتى كتابات العديد من مثقفين المنطقة، تكتب التاريخ والمعرفة عامة وتدّرسه للطلبة كمسلمات وحقائق ثابتة غير قابلة للتشيك بل تعتير بعض الكتابات مقدسة، والتتشكيك فيها هو دنس فكري. وعليه ليست هناك حاجة للتقييم وللنقد، وانما ينتقد الوطن والمجتمع والدين والتراث «الحاقد» و«العدو» و الخائن» و"المارق".

يتعلم الطالب مبكرا النظر لماضي أمته بحس نوستالجي/ حنيني وكأنه العالم المثالي الفاضل الذي لم يعشه بل تعلم عنها ويحلم بعودتها يوما ما ليعيش فيها. ومن منطلق هذا الحس ينظر الى مجتمعه من موقف المدافع عنها والرافض لأي شكل من أشكال النقد لثقافته وتراثه ومجتمعه. وقد أدى هذا الحس في الشباب الخليجي الى عدم التحمل في الدخول في مناقشات حول تاريخ الوطن والأمة وتقييمه ونقده، بل يتصرف وكأن التاريخ ملكٌ له ومن لم يتفق معه مشكوك في وطنيته.

ii. التعليم وقضايا الجندر والتمييز الجنسوي

التعليم هو امتداد للمنظومة الأبوية Patriarchal حيث يرسخ هذا النمط من التعليم فكرة أن التحاور والإختلاف في الرأي هو عصيان وتمرد وسوء تربية من قبل الأهل. فلا يجرؤ الطالب

ان يتحاور ويختلف عن معلمه وإلا يعتبر بانه أساء الأدب. والأخطر من ذلك أن المنظومة الأبوية تربط القيمة بالسلطة وبصور مطلقة، فيتعلم الطالب أن لا قيمة لرأيه الى أن يصبح صاحب سلطة ما. وانعكس ذلك على مستوى بحوث الطلبة الذين اعتادوا على نقل آراء الكتّاب في بحوثهم دون أن يلتفتوا لأهمية استنتاجاتهم العقلية. اكما أن الكتب الدراسية تعزز من الموروثات التراثية والثقافية بصورة شبه مطلقة. الأفكار الدونية الضمنية التي لا تكون واضحة من الوهلة الأولي أو التي تبدو ايجابية وبريئة كقيم العفة والشرف والبراءة والطهارة والخلو من الأخطاء والعلاقات الجنسية، كلها تبرز خلال أدبيات التعليم ولكنها موجهة للإناث دون الذكور. وتتطلب هذه الأدبيات من المرأة، لكن بصورة ضمنية، من أن تحافظ عليها كقيم مطلقة. جسد المرأة مازال، كما كان في السابق وكما تعبر عنه أدبيات التراث الشعبي، حمالة لمكانة الرجل وشرفه وهيبته فى المجتمع بينما الرجل معفي من هذا العبأ. فالرجل فحل وكامل الرجولة عندما يقيم علاقات جنسية غير مشروعة, ولن تلوثه بل في بعض الاحيان يحسب لصالحه. بينما جسد المرأة ليس ملكا لها بل هو ملك للرجل والاسرة والمجتمع الذي يتملك حق التصرف فيه. فنرى الكثير من الشابات الاتي يعنين من اقصاء وضغط اجتماعي بسبب علاقات "حب فاشلة" او زواج فاشل، مما يؤثر ذلك على فرصهن المستقبلية ووضعهن الاجتماعي، بينما الشباب معفي من تبعات هذه العلاقات "الفاشلة" ايا كانت.

iii. التعليم في المدارس الحكومية في مقابل المدارس الخاصة

بصورة عامة هناك فصل ثقافي وطبقي شاسع بين عالمي المدارس الحكومية والمدارس الخاصة. مع أن الثانية يقسمها البحرينين على درجات على حسب التكلفة المادية والإمكانيات المتاحة فيها.

المدارس الحكومية: أغلبية البحرينيين من مختلف الطبقات والهويات تخرجوا من المدارس الحكومية. بدأت الطبقة الثرية بإدخال ابنائها في المدارس الخاصة في نهاية السبعينيات من القرن الماضي. لكن منذ منتصف الثمانينات من القرن الماضي بدأت العديد من الأسر من الطبقة المتوسطة بتسجيل ابنائها في المدارس الخاصة لضمان الحصول على الوظيفة في المستقبل. حاليا، أغلبية طلبة المدارس الحكومية ينتمون للطبقة العاملة من البحرينيين، كثير منهم من سكان القري ونسبة أقل من المدن، والآن أُضيف لهم ابناء «المجنسين»، والعديد منهم لا يتقن العربية . التعليم في المدارس الحكومية تقليدي واللغة العربية هي اللغة الأساسية

للتعليم، اللغة الآنكليزية ضعيفة ولا تعدهم لسوق العمل الذي يشترط توفر اللغة الإنجليزية. يغرس النظام التعليمي الحكومي في الطلبة منظومة العادات والقيم الموروثة ويعزز التعبية الفكرية. الامكانيات المستقبلية المتاحة لهم محددة مقارنة بطلبة المدارس الخاصة. يسمي ابناء المدارس الحكومية ابناء المدارس الخاصة بـ chicken nugget للإشارة الى انهم مدللين ويأكلون من المطاعم الغربية ولا يمتلكون الخبرة في الحياة والعمل ومشقاتهما، وكما أنهم شبه منفصلين عن حياة وصراع الطبقة الدنيا في مجتمعاتهم.

المدارس الخاصة: ما يميز هذه المدارس أن أغلب مدرسينها أجانب غربيين[9] ونسبة أقل من المدرسين من الدول العربية. الجنسية العربية المفضلة في هذه المدارس هي اللبنانية وذلك للصورة النمطية المرتبطة بهذه الهوية بأنها أكثر تقدما وثقامة وأقرب للثقافة الغربية. يعتبر نسبة المدرسين الغربيين معيار في تقييم المدارس الخاصة وتحديد رسومها، فكلما زادت نسبة المدرسين الغربيين زاد الإقبال على هذه المدارس وارتفعت رسومهم. مما أدى الى الإقبال الشديد عليهم. ونتج عن ذلك أن طلبة المدارس الخاصة لديها إرتباط وجداني وثقافي مع الثقافة الغربية واصبحت تحتفي بشعائرها وعاداتها وتقاليدها، في بعض الأحيان، أكثر من احتفائهم بثقافتهم الأم. تأثر الطلبة كثيرا بمناهج التعليم التي تكون إما أمريكية أو بريطانية أو كندية. كما يتأثر الطلبة بقيم وسلوكيات مدرسيهم مما خلق تضارب شديد مع منظومة القيم الخليجية المحلية؛ فعلاقات المثلية الجنسية، مثلا، وإن لم تدرس مباشرة، لكن تسوق ضمنيا كجزء من منظومة الحرية الفردية وحقوق الانسان.

يجدر هنا الإشارة الى مشروع وزارة التربية والتعليم في البحرين حول مدارس المستقبل وكيفية تفاعله مع ماعرف بالربيع العربي في 2011. يهدف مشروع الملك حمد لمدارس المستقبل، التابع لوزارة التربية والتعليم في البحرين، الى توظيف تكنولوجيا المعلومات والاتصال في عمليات التعليم والتعلم. وكما يذكر موقع المشروع «***يشتمل هذا المشروع على منظومة متكاملة تتضمن بوابة تعليمية تحقق نقلة نوعية في الأداء التعليمي في ظل بيئة تعليمية معاصرة تساندها تقنيات التعليم والمعلومات الحديثة بما يتيح أقصى قدر من التفاعل التربوي وتطلق إبداعات الطلبة ويمنحهم قدراً أوسع من الحركة للاطلاع والبحث والتحاور والتنافس عبر التقنيات الحديثة التي تمكن الطالب من ملاحظة كل جديد على المستويات***

[9] - أو المحسوبين على العرق الأوروبي الأبيض، كالأستراليين أو البيض من دولة جنوب أفريقيا.

المحلية والعالمية.»[10] بدأت هذه المشاريع بالعمل منذ عهد الإصلاح. لكن ما يهمنا هنا كيف أثرت هذه المناهج التربوية الجديدة في شخصية الطلبة وبالتالي في رسم هوياتهم الجديدة وذلك مقارنة بالسمات العامة لطلبة المدارس الحكومية.

بناءً على ملاحظة مجموعة من المدرسات البحرينيات، أن أكثر المدارس التي تفاعلت طلبتها مع الأحداث السياسية في العالم العربي في 2011 وشاركت في الفعاليات السياسية من مسيرات واعتصامات والإضراب العام هم طلبة مدارس المستقبل. أدت تقنيات التعليم الحديثة وتأسيس قدرات الطلبة في البحث والتحاور والتنافس الى تأسيس جيل من الطلبة واعي بمفهوم العمل السياسي ونشط في ساحاتها الافتراضية، بل ويرى أن من حقه أن يكون فاعلا في العمل الوطني السياسي.

كل ما ذكر مسبقا، يشير اجمالا الى ضعف/فشل المؤسسة التعليمية في انتاج منظومة حياة ثقافية وفكرية واخلاقية وإدارية متوازنة لجيل الشباب الخليجي، الذي أصبح يتخبط بين تيارات رديكالية يمينية ويسارية يبحث من خلالها عن دورٍ وهوية

iv. صراع القيم وازدواجية المعايير

تم التطرق مسبقا لهذا الجانب عند الحديث عن التعليم والمنظومة الأبوية والمرأة. لكن بالإمكان تلمس حدة هذه الإزدواجية على أصعدة أخرى حيث تبرز في العلاقات مع العمالة الوافدة والأقليات الدينية والطائفية والعرقية، وكذلك في العلاقات الجدلية مع الثقافة الغربية عامةً في مقابل الإنتماء للهوية الخليجية والقومية العربية والدينية.[11] لكن بصورة عامة ممكن ملاحظة ما يلي:

- الاحساس بالفشل في القضايا القومية العربية (كقضية تحرير فلسطين والحروب بالوكالة في الوطن العربي) والمشاريع النهضوية الثقافية والعلمية والاقتصادية أورث هذا الجيل حسا داخليا عمقيا بالمرارة والانهزامية وعدم الكفائة، وفي نفس الوقت الانبهار الشديد بالغرب والاحساس بالضعف والدونية في مقابل الغربي.

[10] http://www.moe.gov.bh/KHSFP/

[11] جدلية العلاقة مع الثقافة الغربية في مقابل الهوية العربية موضوع متشعب ويتطلب مساحة أكثر مما هو متوفر لنا في هذه الورقة.

- هذا الاحساس بالدونية أسس حالة التبعية للثقافة الغربية بين الشباب الخليجي. ولكن هذه التبعية تمحورت بصورة أساسية حول الثقافة المادية الاستهلاكية من الثقافة الغربية أكثر من الجانب العلمي أو الفكري.

- والأسوأ من ذلك، ان الشاب الخليجي اصبح ينظر الى مشاهير الفن الاستعراضي في الغرب، والذين لا يعكسون واقع مجتمعاتهم ولا واقع الفن عامة بل واقعهم الاستثنائي فقط، على انهم يمثلون الثقافة الغربية عامة. فأصبح تقليد سلوكيات ومظاهر مشاهير الفن الاستعراضي الغربي معياراً للتطور والتحضر والتحرر. وفي آن ذاته قلما يتابع العلماء والمفكرين والادباء الغربيين.

- اتاحت الوفرة المادية من الثروة النفطية وسياسات الدولة الريعية في الخليج الى تعزيز السلوكيات المادية المبالغة عند الشباب الخليجي، واصبح مفهوم الكفاءة (كقيمة أساسية لبناء القدرات) ترتبط بإمكانيات الاستهلاك المادي المفرط والاستعراض أكثر منها بالكفاءة العلمية والثقافية. المثير للقلق أن هيمنة الثقافة المادية في المجتمع الخليجي لم تقتصر على جيل الشباب بل امتد الى مختلف قطاعات المجتمع الخليجي وأصبحت من أبرز سمات المجتمعات الخليجية التي أمست تلفت أنظار الزائرين لدول الخليج فتبهر البعض ويشمئز منها الآخر لشدة استعراضيتها.

- وهذا يقودنا للتساؤل الذي يدور في أذهان الكثيرين من الشباب، لماذا على الرغم من إلزامية التعليم ومجانيته وانتشار مختلف المؤسسات التعليمية من مدارس ومعاهد وجامعات في الدول الخليجية، الى جانب وفرة السيولة المالية، مازلنا كدول ومجتمعات غير قادرة على انتاج أبسط احتياجاتها؟ هل هو لفشل التعليم الرسمي؟ أم غياب لمنظومة قيم؟ أم لضعف دور المؤسسات الأهلية؟ دون التطرق للإجابة على هذه الأسئلة، أود فقط أن أشير الى أهمية المنظومية القيمية الإنسانية في بناء الثقافة. الوضع السائد في المحافل العلمية وحتى فترة قريبة كان، أن الكثير من الباحثين عند تقييمهم لحالة المجتمعات يتجاهلون وضعية القيم الاخلاقية واثره على العدالة الإجتماعية في المدى المتوسط، وعلى بنية المجتمع ومستقبله على المدى البعيد. وبدأ الباحثين في حقول الدراسات الثقافية والأنثروبولوجية مؤخرا بدراسة الأثارالإجتماعية لسلوكيات

الإستهلاك والفردانية المفرطة (المنبثقة من الثقافة الرأسمالية والنيوليبرالية) وعلاقة ذلك بمنظومة القيم الإنسانية وأثره على السلم الأهلي بمعناه الأوسع.[12]

وهذا ينقلنا الى المحور الثالث ، وهو هيمنة الثقافة الاستهلاكية، الذي تم التطرق اليه في بعض المحاور السابقة.

المحور الثالث: هيمنة الثقافة الإستهلاكية:

لنتعرف على مدى انغماس مجتمعاتنا الخليجية في مستنقع الإستهلاك في ظل غياب الإنتاج الحقيقي، يكفي أن ندرك المجتمع الخليجي هو الأكثر استهلاكاً في العالم للمكياج والعطورات والماء والغذاء![13] أصبح الفرد الخليجي يتسم بالمادية المفرطة في ظل غياب القدرة على الانتاج أو حتى انتاج ما هو بحاجة لاستهلاكه. تحول المجتمع الخليجي الى منظومة اقطاعية في سلوكياته واخلاقياته، وانقسامت الجماعات الى هيراركية في العلاقات، مما ادى الى ازدياد التنافس الاستهلاكي كوسيلة لاثبات التفوق. وفي ظل فشل النظام التعليمي والمؤسسات العلمية في بناء حس الشغف والإكتمال بالمعرفة، أمسى الإنسان الخليجي يبحث عن الكمال والتفوق عبر الإستهلاك والإستملاك المادي الفج. وهذا يعيدنا الى المعادلة الخليجية التي يحاول من خلالها الإنسان الخليجي تعويض المفقود من الكفاءة بالاستملاك المادي، أي **الاستملاك المادي في مقابل الكفاءة العلمية**.

يريد الشباب الخليجي أن يكون متحضرا ومتفوقا مثل الغربي ولكن لا يملك كفائته ولا يعلم كيف يكتسبها فيشتري مظهر الغربي عله يكون مثله، ولكن تظل عالقة فيه حس التبعية للغربي والعبودية لتفوقه.[14] اصبح الخليجي يرى قيمته فيما يستعرضه وليس حتى فيما يستملكه. فأصبحت المادة قيمة مطلقة في تقييم هوية الفرد. وتدور طموحاته حول ما يستملكه وليس حول ما ينتجه. وهنا يمكن للفرد أن يتوقف ويتأمل ما يمكن ان يحدث في حال حدوث ازمات اقتصادية تسحب بساط الوفرة النقدية من تحت قدمي الشباب الخليجي.والأدهى من ذلك أن هذه الثقافة

---

[12] - المقصود هنا بـ "السلم الأهلي" ليس فقط غياب العنف، بل أيضا توفر مجموعة من القيم كالتسامح وقبول التعددية الثقافية والتعايش وأحترام المختلف .. الخ.

[13] - استهلاك الخليج للمكياج والعطورات هو الأعلى عالميا بغض النظر عن النسبة السكانية. بينما استهلاكها للماء والغذاء فهي الأعلى مقارنة بنسبة سكانها.

[14] _ أنظر لمقالة سبيفاك Spivak حول المهمشين.

تغلغلت كل الطبقات حتى الفقيرة منها وتحول الإستعراض المادي الى قيمة مرجعية ومحك في تأسيس العلاقات الإنسانية، كالزواج الصداقات وحتى علاقات العمل والتجارة.

ويجدر أن نشير إلى أن الخليجي يرى نفسه يمتلك جيشا من الخدم والعبيد الأسيويين الذين ينجزون له كل الأعمال الدنيا مقابل أجر زهيد، فيقّيمهم الخليجي على قدر ما يدفع لهم وينظر لهم بحقارة ودونية ودون أن يبالي بحقوقهم وانسانيتهم. في حين، كما ذكرنا، ينظر للغربي بهيبة وتعظيم. وهذا جانب من حالة الازدواجية في القيم التي يعانيها الشباب الخليجي.

ومما زاد من حدة حالة الإزدواجية القيمية في الثقافة الخليجية أنه في ظل الهيمنة المادية والإستهلاكية ازدادت ايضا حدة العصبيات الدينية والطائفية والقبلية واستغلال وسائل التواصل الاجتماعي في نشر وتعزيز تلك العصبيات وشن حروب اعلامية ضد الجماعات المتناحرة. في ظل غياب منظومة المسائلة والمحاسبة في الدول الخليجية وعدم تواصل هذه الحكومات مع مواطنيها في تفسير سياساتها ومواقفها السياسية الاقليمية والدولية، برزت حالة التشرذم السياسي والتناحر بين الفئات الشابة من الخليجيين. فالى جانب أن هذه الفئات الشابة لا تلعب أي دور في رسم سياسات دولها، فقد أضحت لا تعي كيف تفسر التحولات الراديكالية الطارئة في مواقف دولها وكذلك في االعلاقات الدولية والسياسات المصاحبة لهذه المواقف والعلاقات. واعتماداً على الهويات الموروثة للشباب فهم يتبنون مواقف سياسية تتوافق مع انتمائاتهم وليست على حسب قرائتهم واطلاعهم على معطيات الساحة السياسية والثقافية. وأدى هذا الواقع السياسي الى فسح المجال لتبني الباب الخليجي أشد المواقف والممارسات الرديكالية في العالم.[15]

المحور الرابع: الإعلام الخليجي وصياغة الهويات الشبابية

يفتقد الاعلام الخليجي، بصورة عامة، لرسالة انسانية او مشروع ثقافي اصلاحي بنيوي أو حتى استراتيجية عمل واضحة. الإعلام الخليجي يخدم مصالح وسلطات فئات معينة ويمثل صوتها؛ ولايعكس الإعلام الخليجي واقع الإنسان الخليجي من حيث الهموم والقضايا والمشاكل والحلول

[15] للدراسات حول الإستهلاك والاستهلاك في الخليج راجع أبو زيد (1991), منصور (1002), روزنبالت (2011), لونيس (2009), الحكمي (1996), فيذريتون (1991), Bocock (1993; 1993a), Baudrillard (1999).

والطموحات ..الخ. الإعلام الخليجي يمثل صوت السلطة، اياً كانت سلطة سياسية او/واقتصادية. فشل الإعلام الخليجي في أن يكون صوت المواطن الخليجي أو أن يوصل صوته، الإعلام الخليجي لم يستطع أن يكون محايدا في نهجه، بل تسيره من يمتلكه. عدة مقالات ومقابلات اعلامية عربية خليجية تنادي، دون وعي، بما كتبه المستشرقون عن المجتمع العربي بأن ثقافته وعقائده لا تتوافق مع المفاهيم والمبادئ الإنسانية الحديثة، كالديمقراطية والمواطنة (Lewis 1971) ، وأن ما هو موروث هو الأفضل والأسلم للبنية الثقافية الخليجية المعاصرة، وذلك محاكاة لوجهة نظر القوى الرسمية حول ادارة السلطات.

لعب الإعلام الخليجي دورا في تعزيز الصور السلبية التي أسستها الإستشراق حول الإنسان العربي وروجها الإعلام الغربي، وذلك من خلال إعادة انتاج هذه الصور. انتج الاعلام الخليجي بمختلف ادواته، صورة للانسان الخليجي تتسم بالسطحية والغباء والسذاجة والمادية المفرطة في علاقاته وفي إدارته لقضاياه اليومية واهتماماته. المرأة هي اكثر من تتعرض للاسفاف والاستصغار في الاعلام الخليجي، وأهم قيمة للمرأة يتم ترويجه عبر الاعلام الخليجي هو جسدها وما يتعلق به ، وصراع الرجال عليها او/و صراعها من اجل المادة، وكأنها كائن او كالطفل الذي يفتقد السيطرة على زمام الأمور ويجب ان يُوجه ويُرفه عنه ويُسيطر عليه, وهي ليست بانسان صاحب مسؤلية وفكر حر ومشروع بناء. كما أن الاعلام الخليجي، ومن خلال ما ينتجه من مادة اعلامية، يعزز من واقع صراع القيم وازدواجيتها، فما يبيحه للرجل هو حرام على المرأة، فالعفة والشرف كلها مختزلة في جسد المرأة لذا هي بحاجة لحماية الرجل لها وسيطرته عليها، بينما سلوكيات الرجل وعلاقاته فحولة ورجولة وقوة واستقلالية.

بينما أنتقد الأنثروبولوجي الأمريكي ديل آيكلمان (1989) الكتابات الغربية لاستمرارها في التركيز على دراسة المجتمعات البدوية كفئة غالبة سكانياً، وكما ذكرتُ مسبقا أن من آثار الأدبيات الأستشراقية على المجتمعات الشرقية هو تبني الإنسان الشرقي للصور النمطية التي انتجها الإستشراق حوله كحقيقة مطلقة، نشهد أثر هذا التبني الإستشراقي في الإعلام الخليجي جليا. فنرى كيف يسعى الاعلام الخليجي بتسويق أعراف البداوة والعصبية لكن بطرق وصورحديثة وجذابة تحمل الحس النوستالجي، وان كانت في الحقيقة بعض هذه الأعراف

تتناقض مع ابسط واهم القيم الانسانية والمساواة. فمازالت تقّيم الانسان الخليجي على قاعدة «ابن من يكون» وليست ماذا يستطيع أن يقدم وما هي إمكاناته.

خلاصةً، يعكس الاعلام الخليجي مدى تفشي السلوكيات والممارسات الاستهلاكية في العائلة الخليجية، و يسوق في آن واحد تلك القيم والسلوكيات الإستهلاكية الإستعراضية من خلال مختلف قنواته الإعلامية فيفّصل هوية الخليجي من خلال صور مادية بحتة كانشغاله الدائم بالاسواق وامتلاك الجديد من المنتوجات. يلعب الإعلام الخليجي دور "الوكيل الرسمي" لصوت السلطة في الإعلام، فيسوق الإعلام الخليجي لهويات خليجية مشكّلة رسميا وبما تتوافق مع رؤى الرسمية.

الخلاصة

بدأت الورقة بالتساؤل حول حقيقة فرضية الهوية الخليجية وهل هي موجودة بين الشباب الخليجي الذي من المفترض أن يلعب دورا رئيسا في إدارة المجتمع وبنائه وتنميته مستقبلا. وان كانت هذه الهوية موجودة فعلا فما هي المقومات التي تستند عليها. عرضت الورقة عدد من المقومات الموروثة المشتركة بين مجتمعات الخليج العربي ومنها: اللغة واللهجة، والعقيدة، ومنظومة التراث الشعبي، والتاريخ والدم والتزاوج بين العوائل. وشكلت تلك المقومات ارثاً ثقافيا خليجيا مشتركا صاغت سمات بارزة (ولكن ليست مطلقة أو جامعة) لما يمكن تسميته بالهوية الخليجية بين الشباب، ودون أن ينفي ذلك بتعدد الهويات بين المجتمعات الخليجية وداخل المجتمع الخليجي الواحد. ومن عوامل التعددية في الهويات الخليجية هي الطائفية والعرقية والطبقية. أكدت الورقة أن ليس للأفراد أو الجماعات هوية واحدة بل هويات عدة ومتداخلة، والسياقات هي التي تبرز هوية دون أخرى. كما أن الهوية تتغير وتتشكل استجابة أو كردة فعل للظروف المحيطة. وتطرقت الورقة ايضا الى العوامل التي تعصف بمستقبل هذه الهوية وتهدد امكانية قيام اتحاد خليجي، تلك الموروثة منها كالتمييز الطائفي والعرقي والجنسوي والطبقي، وكذلك المعاصرة منها كمنظومة التعليم التقليدي وهيمنة الثقافة الإستهلاكية ودور "الوكيل الرسمي" الذي يلعبه الإعلام الخليجي في صياغة الهويات الشابة. واستنتج البحث الى ضرورة معالجة المنظومة التعليمية والإعلامية وقضايا التمييز على مختلف

الأصعدة لضمان تأسيس منظومة اجتماعية وساسية واقتصادية وقانونية متكاملة تهدف نحو التحول التدريجي الى الإتحاد الخليجي.

المصادر:

1. Bank, Marcus 1997 *Ethnicity: Anthropological Constructions.* London: Routledge.
2. Caton, Steven 1987 'Power, Persuasion, and Language: A Critique of the Segmentary Model in the Middle East', *International Journal of Middle East Studies* 19 (1): 77-101.
3. Gran, Peter 1979 *Islamic Roots of Capitalism: Egypt 1760-1840.* Texas: University of Texas Press.
4. Cohen, Abner 1974a 'Introduction: the lesson of ethnicity'. in A. Cohen (ed.) *Urban Ethnicity,* pp. ix-xxii. London: Tavistock.
5. De Levita, David 1965 *The Concept of Identity.* New York: Basic Books.
6. De Vos, George, 1975 'Ethnic Pluralism: Conflict and Accommodation' in George De Vos and Lola Romanucci-Ross(eds), *Ethnic Identity: Cultural Continuities and Change*, pp. 15-47. Palo Alo, California: Mayfield.
7. Eickelman, Dale, F. 1989 *The Middle East: an anthropological approach.* New Jersey: Prentice Hall.
8. Eisenstadt, S. N. 1977 'Convergence and Divergence of Modern and Modernizing Societies: Indications from the Analysis of the Structuring of Social Hierarchies in Middle Eastern Societies' *International Journal of Middle East Studies* 18(1): 1-7.
9. Evans-Pritchard, E. 1940 *The Nuer: A Description of the Modes of Livelihood and Political Institutions of Nilotic People.* Oxford: Clarendon Press.
10. Fanon, Franz 1986 *Black Skin, White Mask.* London: Pluto.
11. Fortes, Meyer 1983 'Problems of Identity and Person' in Anita Jacobson-Widding (ed.), *Identity, Personal and Socio-Cultural: A Symposium*. Stockholm: Almqvist and Wiksell.

12. Foucault, Michel 1979 *Discipline and Punish: The Birth of Prison.* (trans.) Alan Sheridan. Harmondworth: Penguin.
13. Fox, R. 1990 *Nationalist Ideologies and the Production of National Cultures.* Washington: American Anthropological Association.
14. Friere, Paolo1993 *The Pedagogy of The Oppressed.* London: Penguin Books.
15. Fullerton, George Stuart 1980 *On Sameness and Identity.* Philadelphia: University of Pennsylvania Press.
16. O'Leary, Bernard 1998 'Ernest Gellner's Diagnosis of Nationalism: a critical overview, or, what is living and what is dead in Ernest Gellner's philosophy of nationalism?' in Hall, John (ed.), *The State of the Nation Ernest Gellner and the Theory of Nationalism*, pp. 40-88. Cambridge: Cambridge University Press.
17. Gilsenan, Michael 1992 *Recognizing Islam: Religion and Society in the Modern Middle East.* London: I. B. Tauris.
18. Hooks, Bell 1984 *Feminist Theory from Margin to Center.* Boston: South End Press.
19. Karimi, Sawsan 2003 *Dress and Identity: culture and modernity in Bahrain.* Unpublished Phd thesis, University of London.
20. Kapferer, Bruce 1995 'Bureaucratic erasure: identity, resistance and violence in Moscow, a chronicle of changing time' in D. Miller (ed.), *World Apart Modernity through the Prism of the Local*, pp. 69-90. London: Routledge.
21. Kedourie, Elie 1961 *Nationalism.* London: Hutchinson.
22. Kellas, G. James 1991 *The Politics of Nationalism and Ethnicity.* London: Macmillan Education Ltd.
23. Kohn, Hans 1944 *The Idea of Nationalism: a Study of its Origins and Background.* New York: Macmillan.
24. Layne, Linda 1994 *Home and Homeland: The Dialogics of Tribal and National Identities in Jordan.* Princeton: Princeton University Press.
25. Lewis, Bernard 1971 *Race and Color in Islam.* New York: Harper Torch books.
26. Macdonald, Sharon 1993 'Identity Complexes in Western Europe: Social Anthropological Perspective' in Sharon Macdonald (ed.),

Inside European Identities: Ethnography in Western Europe, pp. 1-26. Oxford: Berg.

27. Marcus, Julie 1992 *A World of Difference: Islam and Gender Hierarchy in Turkey.* London: Zed Books.
28. Mitchell, C. 1959 *The Kalela Dance: Aspects of Social Relationships Among Urban Africans in Northern Rhodesia.* Manchester: Manchester University Press.
29. Moore, H. (ed.) 1996 *The Future of Anthropological Knowledge.* London: Routledge.
30. Al-Naqeeb, K. 1990 *Society and State in the Gulf Arab Peninsula.* London: Routledge.
31. Nash, Manning 1989 *The Cauldron of Ethnicity in the Modern World.* Chicago: University of Chicago Press.
32. Said, Edward 1978 *Orientalism: Western Conceptions of the Orient.* London: Penguin Books.
33. Said, Edward 1989 'Representing the Colonized: Anthropology's Interlocutors', *Critical Inquiry.* 15 (2): 205-225.
34. Said, Edward, 1994 *Cultural Imperialism*. London: Vintage.
35. Salzman, Philip Carl 1978a 'A Study of 'Complex Society' in the Middle East: A Review Essay', *International Journal of Middle East Studies* 9 (4): 539-557.
36. Shryock, Andrew 1997 *Nationalism and the Genological Imagination Oral History and Textual Authority in Tribal Jordan.* Berkeley: University of California Press.
37. Spivak, Gayatri 1987 *In Other Worlds: Essays in Cultural Politics.* London: Methuen.
38. Turner, S. Bryan 1984 *Capitalism and Class in the Middle East: Theories of Social Change and Economic Development.* London: Heinemann Education Books.
39. Turner, S. Bryan 1994 *Orientalism, Postmodernism and Globalisation.* London: Routledge.
40. Van den Berghe, P.L. 1981 *The Ethnic Phenomenon.* New York: Elsevier.
41. Weinereich, Peter 1983 'Psychodynamics of Personal and Social Identity: Theoretical Concepts and Their Measurement in

Adolescents from Belfast Sectarian and Bristol Minority Groups' in A. Jacobson-Widding (ed.), *Identity, Personal and Socio-Cultural: A Symposium*, pp. 159-185. Stockholm: Almqvist and Wiksell.

42. Bocock, Robert 1993 "The emergence of modern consumerism" in *Consumption*. Routledge: New York.

43. Bocock, Robert 1993a "Theorising consumerism" in *Consumption*. Routledge: New York.

44. فيذرستون, مايك 1991 *الثقافة الاستهلاكية والاتجاهات الحديثة*, ترجمة د. محمد عبدالله المطوع. دار الفارابي : بيروت.

45. أبو زيد, أحمد 1991 *الاستهلاك في المجتمع القطري أنماطه وثقافته*.جامعة قطر: الدوحة.

46.منصور، تحسين 2002 أثر الإعلان التلفزيوني في السلوك الاستهلاكي :مؤتة للبحوث والدراسات - سلسلة العلوم الإنسانية والاجتماعية المجلد :17، العدد:6.

47.الحكمي، علي عثمان *1996 أثر التقلبات النفطية على سلوك الاستهلاك الخاص في المملكة العربية السعودية - دراسة قياسية*.مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية. المجلد: 21، العدد 83.

48. علي، لونيس 2009 *الأبعاد الإجتماعية و الثقافية لسلوك المستهلك العربي*. المكتبة العصرية: مصر.

49. روزنبالت، روجر 2011 *ثقافة الإستهلاك : الإستهلاك و الحضارة و السعي وراء السعادة*.

50.كريمي، سوسن 2006 *هل هي الطائفية*؟ "ورقة مقدمة لمؤتمر الاجتماعيين في الكويت 2006.

51. نارايا، أوما 2002 "معارضة الثقافات: "التغريب"، احترام الثقافات ونسويات العالم الثالث" الصدة، هدى (ت) ***أصوات بديلة: المرأة والعرق و الوطن في العالم الثالث***. 2002 ترجمة هالة كمال. القاهرة: مجلس الأعلى للثقافة.

52. جامبل، سارة 2002 ***النسوية وما بعد النسوية***.ترجمة أحمد الشامي. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة.